اسمح لي ببداية

قصص

منال الأخرس

اسمح لى ببداية
قصص
منال الأخرس
المراجعة والتصحيح اللغوي الإذاعي / أحمد جابرسعد
دار ميتا بوك للطباعة والنشر
هاتف : ٢٢٦٦٢٢٠ / ٠٥٠
٠١٠٠٥٥٨٤٠٩٨- ٠١٢٢٢٦١٤٣٦٣
البريد الإلكتروني : darmetabook@gmail.com
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
رقم الإيداع بدار الكتب : /٢٠٢٠
I.S.B.N: 978-977-6822-65-8

إن الأراء الواردة فى هذا المصنف لا تعبر بالضرورة عن آراء
وتوجهات الناشر وإنما تعبر عن رأي المؤلف وتوجهاته فقط

يمنع نشر أو نسخ أو ترجمة أو استعمال هذا المصنف أو جزء منه فى أي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافى والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها بدون إذن كتابي من المؤلف طبقًا لقانون حماية الملكية الفكرية رقم ٨٢ لسنة ٢٠٠٢ والقوانين المماثلة دوليًا.

إهداء

إلى الأبطال في حياتنا ..

انتبهوا .. للبطولة أكثر من وجه

لا داعي للغرور ..

فالبطولةُ أحيانًا تكون لأحقرِ البشر .

ليس كلُّ بطلٍ رمزًا للمثالية

منال الأخرس

طوفـان

مـن بعيـدٍ لاح لهـا إقدامُـه علـى القفـز مـن أعلـى قمـة طالـت ناظريهـا، إزاء ذلـك المشـهد لـم تسـتطع السـكوت والصـمت؛ لـذا كانت محاولاتها المستميتة بمد يديها لإنقاذه قدر المستطاع .

أصبح حتميًا أن تنقذه، فلا أحد غيرها شاهد على ما يحدث.. ليس بوسعها الصمت..

أقدمت نحوه بطوق النجاة، أخذت تلفت نظره نحوها حتى ينتبه وتشغله عمَّا نوى، كان لا يعبأ بما تفعل. مضى في طريقه بإصرار، لم يعبأ بما تقول، لم تشغلْه حيلُها، لكنها لم تيأس في المقابل .

كلما اقتربت منه كانت لا تجذبه نحوها بقدر ما كان يجذبها نحوه، وإذا بهما قد أصبحا كيانًا واحدًا، جرفها في طريقه نحو هدفه الذي نوى.

جرفهما الطوفان معًا، وبدلًا من أن تتولى إنقاذه اكتشفت أنه هو الذي أنقذها، على عكس ما كانت تظن.

اكتشفت معه أنها لم تكن في مأمن، فقد كانت تعيش العذاب والضياع. انتشلها معه إلى عالم جديد حيث الحياة..

كانت تظن أنها كانت تحيا، ولِمَ لا ؟ فبدل الدليل ألف دليل هناك نبض في الوريد، ولديها زرعٌ جديد، والشمسُ تطلع عليها كل يوم..

هذا الحائط شديد، والموت عنها بعيد.

إذن هي تحيا وأمامها العمر مديد، بَيْدَ أنها كلما بحثت عن روحها تجدها تغيب، وإن استدعتها تمردت .

عاشت بلا روح، بلا قلب، لم تكتشف ذلك إلا عندما اقتربت من ذلك الشخص الذي حاولت إنقاذه، وقتها عثرت على روحها، كانت معه، وجدت قلبها يسكن بداخله.

لم تنتبه أنها تركت كلَّ شيء في سبيل تلك الروح وهذا القلب. أخذت تتساءل:

"كيف ظننت فيما مضى أنني كنت أحيا ؟ لم أكن أحيا، كنت أبحث عن روحي ولا أجدها. كلما استدعيتها لا أجدها، ما ظننت يومًا أنني كنت بلا روح.

لكنني كنت حزينة لا أعلم لماذا ؟ غريبة لا أعلم لماذا؟ مكسورة لا أعلم لماذا ؟ وحيدة رغم ضجيج العالم من حولي، لا أعلم لماذا ؟ كنت أتضاءل وكدت أتلاشى لا أعلم لماذا ؟ كنت أفقد القدرة يومًا بعد يوم على الكلام وعلى القبول والرفض ..

كنت عاجزة عن الشعور بالسعادة، رغم أن كلَّ عواملها في إمكاني وتحت يدي، ولا أعلم لماذا؟

فعلًا كنت لا أعلم .. وعلمتُ الآن .

الآن أنا أعلم الفرق بين الموت والحياة، بين اليأس والأمل بين الأسود والأبيض والليل والنهار، إنه الإحساسُ بكل ما مضى من أشياء.

خلدتْ إلى وسادتها بعد سنواتِ حرمانٍ من النوم العميق.

أخيرًا استطاعت النوم، أخذها السُباتُ إلى عالم الأحلام من جديد، تخرج من حلم إلى حلم، لا تلبث أن تفيق حتى يغلبها النعاس لنومٍ عميق. كلما استيقظت أتتها غفوة جديدة، لتذهب معها إلى بعيدٍ حيث الهدوءُ والسكينةُ، إحساسٌ لم يغمرها من قبلُ منذ عهد الطفولة.

ظنت أنها فارقته للأبد وإذا بها تعود لنومٍ عميقٍ عميق.. حُرمتْ منه كثيرًا.

لسْتُ سمكةً

أستقرارٌ حتى الموت في عالمٍ بلا حب ؟ أم عواصفُ المجهول في عالم الحب ؟

هل تخرج السمكة من المحيط إلى الفضاءحيث الحُب، أم ستبقى في المحيط حيث الحياة ؟ وهل الحياة بلا حُبٍ حياة ؟ .. بالطبع لا.

ربما مكثت حيث هي، تقفز على السطح تأخذ بعضًا من شهيق الحب وتعود، لكن إلى متى تسرق الحب وتأخذه خلسة ؟

الصياد على الشاطئ ينتظر، ويترقب ظهورها لينقض عليها .

حائرة هي بين العالمين، تائهة بين النقيضين، فوق الماء وتحته حيث الحب والحياة، فالحب مرادفٌ للمغامرة بذاتها والحياة مرادفة للموت البطيء ..

أموتًا سريعًا أم بطيئًا كانت تبغي ؟

ليست الخطورة في الموت فهو آتٍ، ولكن متى تعيش الحب؟

فقد وجدته أخيرًا، بعدما يئست وأعياها البحثُ عنه..

وقت عثورها عليه غمرتها السعادة، طار بها الأملُ لآفاقٍ لا حدود لها. لم تنتبه حينها لكل تلك التوابع، ولم تفكر وقتها إلا في شيءٍ واحد، هو إنقاذ نفسها من الموت البطيء، الذي كان يحيطها بمحيطها، أهداها الحبُّ روحَها لتجد نفسها تتشبث بالحياة أكثر وبالمحيط، ولكنَّ الحُبَّ حيث الفضاءُ سينتهي دوره أم لا ؟

فكرة وجود الحب ذاتها وميلاد الأمل أعطتها دفعة للاستمرار لكن هل ستكتفي بهذا القدر أم ستتطلع إلى المزيد ؟

هل تربصُ الصياد والخوفُ من المجهول يقودانها للبقاء تحت الماء أبدًا ؟ أم ستتحدى الجميع حتى طبيعتها لتختار الحب مهما كان الثمن ومهما كانت العقبات ومهما واجهت من عراقيل؟. السمكة بطبيعتها تميل للاستقرار، والحياة لديها مرتبطة بالماء فهل ستبقى به وتضحي بالحب الذي أنقذها ومنحها قبلة الحياة أم ستخرج من الماء، وحينها ستكون مهددة بالموت؟.

هل سيوفر لها الحُبُّ الحياةَ التي تبحث عنها؟ أم ستمكث حيث هي؟

الحيرة الشديدة حد الفزع أيقظتها من نومها العميق، انتبهت من سُباتها العميق وما لبثتْ أن قالت:

"الحمد لله، الحمد لله، كنت أحلم .. لستُ سمكة "

آخِرُ رجلٍ في العالم

صعد بها لأعلى ما تتخيل، إلى أعلى قمة في عقلها، شعرت بفضله أنها أغلى امرأة في العالم. وضعها في حيزها الذي تستحقه، عبر بها فوق آلامه ورغباته، استقرت هنا في رأسه. ما إن وصلت أبت النزول، ظلت حيث تمنت، بل فوق ما تتمنى، لم تعبأ بما يعانيه لحظة، فقد استحوذت على آفاقٍ أعلى، عندما ألمح لها بالهبوط؛ لاحتياجه إليها رفضت بشدة.

كيف تهبط من أعلى قمة وصلت إليها؟

جمال كمال فهيم

"جمال كمال فهيم" رجل في العقد الخامس من عمره لكنه يبدو أصغر من سنه بكثير، لم يعرفْه أحدٌ إلا وتربع على قمةِ أحداثه الهامة، فهو كما يقال على أمثاله يتقن "سبع صنايع"، هو ماهر ينجح دومًا في خطف عقل كل من عرفه، إلا أنه كان يظهر في حياة كل من عرفهم في أوقات عصيبة نادرًا ما تتكرر، فهو المنقذ في المواقف الصعبة فلا أحد غيره يجيد ما يفعله.

يظهر مثل القشة التي تدرك الغريق وسط البحر، يتلقف من ألمَّت به الأزماتُ كمن يقع من السماء، وتكتب له النجاة على يد من تلقفه في آخر لحظة ..

فجأة تردد اسمه كثيرًا في محيطنا، وجاء الدور على بيتنا الكبير، كان الرجل يتسلل إلى الأفق حولنا، لم نكن نتوقع أنه سيكون ضيفًا في حياتنا يومًا رغم أنه من العائلة.

فنحن لا نندمج مع الآخرين؛ لأننا قليلو الاختلاط مع من حولنا.

كان اسمه في الآونة الأخيرة يتردد في حواراتنا كثيرًا، ربما كان البطلَ المسيطرَ على الأحداث، رغم أنه ليس من الأفراد

الرئيسيين في كل الأحداث، لكنه بأفعاله كان يشغل المساحة الأكبر والمكانة الأعمق. يأتي في التوقيت الذي يضمن له التأثير في الأحداث بكل دقة ومهارة، لا أعلم هل يقصد ذلك أم أنها عفوية وتلقائية فطرية تفرضها الظروف ؟

هل يجيد زرع دوره في الأحداث بكل مهارة ؟ أم أنها الأقدار؟ أظن أنَّه لم يلتفت أحدٌ إلى هذا الاستفسار، فتلاحقُ الأحداثِ وصعوبتُها لم يعطِ لأحدٍ منا تلك الفرصة للتحليل والتفسير.

لا تجد مجلسًا من مجالسنا مع بعضنا أو مع أحد من جيراننا أو أقاربنا إلا ويدعو له بالصحة، وطول العمر، والبركة والعافية. الكلُّ صغيرًا وكبيرًا لسانُ حاله يقول: "ربنا يبارك له ويعافيه وينجيه ويطول عمره".

اقترب الرجل شيئًا فشيئًا من بيتنا الذي أخذت تعصف به الأزماتُ ما بين مرض جدي المفاجئ، وتغير معاملة ابنه الكبير – عمي– وجحوده لأبيه، وقسوته على أمه – جدتي – وتشفيه في كل ما يحدث لهما بدلًا من أن يقترب منهما ويخفف عنهما ما هما فيه كأي ابنٍ بارٍ بوالديه..

ما دفع بجمال كمال فهيم ليقوم بدوره هو أبي، الذي لم يختلف عن عمي كثيرًا في الجحود، ولكن على استحياء. ربما

كان في قلبه شيءٌ من الرحمة بجدي الذي تدهورت حالته الصحية والنفسية؛ مما أثقل على جدتي الحمل والهم، وهي وحيدة بلا سند من ابنيها وقسوتهما.

في تلك الأثناء كان "جمال كمال فهيم" قد تبوأ مكانًا ليس بالهين في قلوبنا جميعًا، فما يلبث أن يجيء حتى يهلل جميعُ من بالبيت من أطفال وكبار خاصة جدي المريض، إذ كان رحيمًا به أكثر من أبنائه، فكان يشرف على علاجه ويرشح له الأطباء ويساعده في تغيير ملابسه بلا حرج . بينما كان يتأفف من ذلك من هم أولى بذلك – أبي وعمي – أولاده.

يبدو أن عمي قد شعر أن جدي في مرضه الأخير، فكان يتحرك بلا أمل وبلا دافع، ربما كان يريد أن يوفر ماله ومجهوده، لدرجة أنه قالها لجدي صراحة ذات مساء "أنت لن تبرأ من مرضك واعتبر نفسك ميتًا ".

كان جدي ينتظر من أبنائه لحظة قرب، عناية واهتمام، ولكن لم يجد أيَّ شيء سوى الشماتة والتشفي؛ كل هذا لرفض جدي أن يظلم باقي أولاده ويحرمهم من الميراث الذي طمع فيه عمي وأبي معًا.

كان أبي لا يتكلم في تلك الأمور، لكنَّ عمي كان يحفزه في

الضغط على الجد والجدة لكي يتقاسما معًا كلَّ شيء. كان جدي لا يريد ظلمًا لأحد من أبنائه؛ فلقد جرب الظلم وذاقه على يد شقيقه الأكبر فيما مضى، بعدما استحوذ على كل شيء من ميراث أمه.

لم يطل بجدي المرض، فلم يستغرق سوى شهر واحد ولكنه كان بمثابة أعوامٍ وأعوام. لعله تيقن أنه لم يفلح في تربية أي من ولديه، ربما كان على قناعة أن ذلك حدث لأنه رفض الظلم لباقي الأبناء؛ لذلك صبر على ما ألمَّ به من جفاء ولديه..

أظن أن جدي لم يكن لديه ذنوب قط، كان في عيني ملاكًا لا يستحق ما حدث له، كذلك جدتي كيف لا يراها أبي كما أراها ملاكًا ؟

هل طمعُ الدنيا يفعل ويغيِّر ويهون ويقسي القلوب هكذا ؟ أم أن النفوس هي التي تظهر على حقائقها في المصائب ؟

ولماذا لم يكن قلب أبي وعمي مثل قلب "جمال كمال فهيم" ؟ الذي عطف على جدي وجدتي وكان الأقربَ لهما.

كان يقضي لجدتي كلَّ مصالحها، يصلح لها كلَّ ما تريد إصلاحه ليته كان قادرًا على إصلاح أخلاق ابنيها، لكن لا مصلح للقلوب ولا الظروف إلا الله..

بعد موت جدي توالت الأحداث السيئة، وتكشفت الحقائق المرة وتوَحَّشَ عمي، لولا أن جدي كان قد أمن جدتي من غدره وغدر غيره، ما صنعه جدي أجبر عمي على تنكيس سيفه ووضعه في غمده، بعدما كان عازمًا على شهره في وجه الجميع ليطيح بأمه –أغلى ما في وجوده– بعدما نجحت زوجته في زرع القسوة والفرقة والبغضاء بينهما، حتى أصبحت العدو الوحيد له..

لا أعرف ماذا أكل عمي؟ وماذا شرب ؟ حتى يتحول هكذا ويصبح قاسيًا كارهًا لنا جميعًا.

هل من الممكن أن يأكل الإنسان أو يشرب شيئًا يغيره هكذا ؟

هل حقًا السحر بإمكانه أن يفعل ذلك ؟، يقتل أباه بدم بارد بجحوده وتهديده، وإهماله له، وشماتته به، وإهانته في كل مراحل مرضه، وغلق كل أبواب الأمل في وجهه.

كيف تجرَّأ على فعل كلِّ تلك الكبائر في حق والده ؟

كيف استطاع أن يتركه ذليلًا في مرضه ؟ وكأنه مَرِضَ فقط لأنه بخل عليه بتركة ليس له حقٌ فيها..

وقف جدي أمام أطماع عمي ورغبته في الاستحواذ على كل شيء؛ فهو الأحق بها من وجهة نظره.

كيف سولت له نفسه ذلك ؟ وكيف أباح لنفسه أن يقتل جدي قتلًا لا يعاقب عنه قانون الدنيا.

كنت بحكم جلوسي بجوار جدي دائمًا خاصة في أيامه الأخيرة شاهدًا على ما صنعه عمي، الذي كان كلما زار جدي تماسك الرجل أمامه، رغم استفزازه وتشفيه به، إلا أنه بعدما ينصرف عمي ينهار جدي باكيًا، وكان يرفض العلاج؛ رغبة منه في عدم الرغبة بالبقاء في تلك الدنيا، إلى أن يأتي"جمال كمال فهيم" فينجح في إضحاكه، ويعطيه الدواء بكل رضا وحب وتفاؤل، ثم يأتي عمي ليفسد كل ما صنعه "جمال كمال فهيم" فيعيد جدي إلى حالته الميئوس منها.

كان علاج جدي في كلمة حلوة من فم عمي، ولكنه بخل عليه بها متعمدًا مثلما فعل جدي وبخل عليه بثروته كما كان يظن ويصور لنفسه ويقنعها بذلك.

كنت شاهدًا على قتل جدي بسيف عمي وجبروته، ونظراته المميتة وغضبه غير المبرر، وصراخه في وجه جدي بأنه لن يشفى ولن يبرأ مما هو فيه إلا بعدما ينفذ ما يريده عمي، لكن جدي كان شجًاعا وقويًا ولم يخشَ شيئًا..

أماته عمي عندما صدم جدي بشرِّهِ وبشاعته وفحشه وجشعه.

مـات أخيـرًا بعـدما مـات آلافَ المـرات علـى يـد عمـي بفعـل تصرفاته التي لا يصدقها عقل ؟.

هل يفعل أحدٌ ذلك بوالده المريض؟ ياللجُرم الذي اقترفه في حق والده!!

لم يرزق عمي بأبناء ذكور، ترى كيف سينتقم الله منه بعدما صنع ما صنع ؟

هل كان جدي عاقًّا لوالديه، فانتقم الله منه؟

ما أعرفه أن جدي كان يتيمَ الأب وبارًا بأمه وماتت وهي تدعو له..من يأتي بحق جدي؟ ومن يقتص له من عمي المجرم؟ هي الجريمـة الكاملـة التي دبرهـا عمـي كي يمـوت جـدي قهـرًا ويرثـه ولكنَّ جدي كتب ما طمع فيه عمي لجدتي فهي الأحق، فقد كان مدينًا لها، أراد أن يخلص نفسه من ديونه بدلًا من أن يتحكم فيه عمي ويؤذي جدتي صاحبة الحق..

الوليمة

تلمحُك بصيرتي من تحت الماء، آمنًا وضامنًا بوجودي مَسَرَّتك، كلما صعدت إلى السطح تدفعني عيناك إلى القاع:

"اختفي يا وليمتي، خنقة الماء عليك أهون من فحيح النار المستعرة حولي في كل مكان، أخشى عليكِ من الهلاك، فتألمي وتكتمي آهاتك.

ترتعد فرائصي لأجلك، أنا المعبأ بالأكسجين، تعين طبعًا أن الصراخ يلزمه تباعد الفكين، ومن المسافة بينهما أنزف الأكسجين، تتوغل بداخلي النار وتلتهم حقي في الأنين.

المعاناة قطعًا لحين، فإياك أن تبوحي حتى بالآه؛ وإلا نَفِدَ رصيدك في الحياة، انتظريني، حتمًا ستهدأ تلك المعاناة.

إرهاب

تلك الحوائط كم تخبئ وراءها من الشرور!!

إنها جدران مريبة ومعتمة، إنها تقبضني وترهبني، مات الغد في هذا المكان.. أخشى أن أموت أنا أيضًا، أخشى أن أتعايش مع الأطلال الرابضة في كل نقطة حولي.

هنا شاهدت الموتى يتحركون، شاهدت الشياطين يحاولون تدمير كل صرح، يقضون على اللون الأخضر في أعماق الأنقياء ..

أدركت كيف يتميزون غيظًا كلما فشلت مكايدهم، كيف يتصاعد بخار الحقد من محابرهم المسمومة، كيف تجسد الخطوات كراهية ذهابًا وإيابًا ..

يقتلون الحُبَّ

عندما أشعلوا الأنوار بالطرقات، وأبى الشتاء حينها التراجع، وتسلل إلى أعضائي من كل ثغر من خيوط ملابسي.

كنت تقي تلك البقعة المقدسة من ارتعاداته وبداخلها صندوق الحياة المسحور.

وقفت في شرفتي أرقب قدومهما وإذا بهما يملئان الدنيا بالخطوات ويحشدانها بالنغمات والطبول القارعة على جانبيها .

كل الدنيا كانت أسفل قدمي، كادت السعادة تخرج من أعماقى لتنتحر، ولكي أحتفظ بها أطول وقت ممكن كنت أغمض عيني مرة، وأغلق فمي مرة، وأضع أصابعي على أذني مرة .

كنت أتصَنَّعُ الحيل لأقنع نفسى أني لا أحبسها، فأغمص عيني لا لشيء إلا لقوة الأنوار، وفمي لقسوة البرودة، وأذني لصخب الأصوات .

واقتربا .. ولمَّا دققت النظر فيهما؛ وجدتك فى محيطهما، وماجت الدنيا من تحتي هل جَدٌ ما أرى ؟! .

وبعد ما كنت أرسل لك أطيب اللحظات، وجدتني ألعنك، وأقول للأرض : " افتحي جوفك وابتلعيه، إنني لا أحتمل رؤيته" .

رغم اشتياقي إليك فالبعد أهون، كلما توسلت للأرض أنظر لأجدك أسفل أسفل قدمي .. لا تعرف لك اتجاهًا، ولا تجد مأوىً وكأن الأرض قد استجابت لرجائي ولكن بشكل أعنف مما تمنيت، إنها لا تطيق موضع قدم منك، أنت الآن تحاول أن يتلقفك أحدٌ من سهامي الساقطة ونفور الأرض الصامته، أراك وأنت تدور بين الناس، كمن أسكرته حدة الخنجر.

لا تثبت لك قدم .. وأخيرًا أنقذك كرسي فجلست عليه وأخرجت من جيبك سيجارًا، ومنديلًا تجفف به ما سال منك من عرق، ورغم حالتك لم تأخذني بك شفقة، وظلت عيني ترمقك، وبعدها استعدتُ شيئًا مما افتقدت، اختفيتَ من عيني ولم أرك بعدها .

الصمت الثائر

ثار صمتي وسكوتي، كانت ثورته زئبقية الاتجاه والحجم، إلا أنها كانت محدودة الهدف، فلابد من نهاية لتلك التراكمات، لابد من العثور على سوق جيد يستوعب ما عندي من مقتنيات.

انهالت أمامي أزماتي، سالت مني أسئلة واستفهام في نزيف غير قابل لفكرة النهاية، وددت لو ظلَّ ليصفي كلَّ بقعة حيرة، تمنيت لو انسكب فعلًا ما بداخلي من منغصات، وجدت نفسي وسط بحيرة من مختلف أشكال السؤال والحيرة وألوانهما .

كدت أغرق بها، من ينقذني من الغرق في تلك البحيرة التي لا مثيل لها ؟ إنها من صنعي أنا، هذا سر خطورتها..

أدركت حجم مأساتي عندما أيقنت أن جوهر أزمتي أنه لم يمر بها أحدٌ غيري، زادت حيرتي فلمن ألجأ ؟ ممن أطلب المساعدة ؟ من يقدر أن يشعر بما في داخلي من مآزق؟ كيف الخروج من بحيرتي التي أحكمت سجني وعزلي في منفاها ؟ فلا يوجد قط أصعب من منفىً تصنعه النفس ونغزله نحن بأيدينا.

ظللت أسبح وما زلت عسى أن أجد مخرجًا، عسى أن أعثر

على قارب نجاة يحميني من الغرق، يتيح لي أن أحمي بحيرتي العذبة من التبخر والتعكير، أهيئ لها مسالك مأمونة ومضمونة ليصل محتواها إلى كل البشر، هي حقًا تستحق أن يسعى إليها كلُّ باحثٍ عن شهد المعاناة، ورحيق الألم، وخلاصة الأحزان، وبهجة الدموع..

لن يكتمل إنقاذي لها حتى أنقذ آخر قطرة تخصني في بحيرتي، فإما أن ننجو معًا وإما أن نهلك معًا.

فكرت كثيرًا في البوح بما في داخلي لمن حولي، بَيْدَ أن هناك عائقًا، هو أنَّ كل من حولي لديهم ما يكفيهم من الهموم، منهم من لا يملك قلبًا يستوعب معاناتي وألمي. إنني أشفق على الجميع هنا، فلا أحد منهم يحتمل أزمتي، فالعالم حولي مغمور في سطحية لا حدود لها وأزمة الفكر به هي رفاهية منبوذة .

بضاعتي غير قابلة للتلف، وددت لو غذيتُ بها كلَّ البشر، لكن كيف السبيل؟ فالفجوات العميقة تحاصرني، إن اجتزت خطوة فمطلوب مني القفز بأحمالي فوق فراغ الفجوات التي تتربص بي..

فكيف يكون إنقاذ سلعتي؟، كيف العبورِ بها عبر محيطات الظلام والجهل ؟ كيف تستقر في أعماق تليق بها ؟ هل سأنجح

في العبور بها ؟ أملي كبير بحجم بحيرتي، غير أن الطريق به عتمة لا حدود لها، تحاصرني في منفىً له حدود وأسوار شاهقة.

أمانتي كبيرة، الحفاظ عليها وإيصالها لمنتظريها حمل ثقيل وهم كبير، ما زلت أسعى بها وما زلت أنتظر من يساندني.

بينما أبحث عن داعمٍ إذا بسهامٍ تقصدني لا أعرف مصدرها، لجأت لسندي الوحيد متحصنة به، لقطت طرف الخيط، تحديت نفسي وغامرت بكل ما اقتنيت فأنا في حمى رفيق رحلتي. ثقتي العمياء أطاحت بي، أمسكت بخيط المؤامرة مسرعة إليه وإذا به يكمل أمامي أركان الجريمة، ويسدد سهامه نحوي لاغتيالي. لم يكن بخزينة سهامه سوى سهم وحيد، توقع أني سأهرب ناحية شماله، من هول الصدمة لم أتمكن من الحركة، اصطدم السهم بالحائط، ارتدَّ إليه، أصابه فلم يتمكن من الهرب أو الإنكار.

اتجهت نحوه لإنقاذه، ظنَّ أني سأقضي عليه، ابتعد عني، لم ينظر أين تأخذه قدماه، لم يدرك أنه يلقي بنفسه من أعلى القمة الشاهقة، هوى في هوة سحيقة، هلك للأبد .

لم يصبني سهمه، لكنَّ جرحي كبير، عميق، هل سأشفى منه ؟

واصلت المضي في طريقي الطويل ونزيف الألم معي لا يهدأ .

مركز قوة

أخشى من استمراري في هذا المكان أن يتلوث قلبي بالكراهية، لقد نجح الجميع هنا في أن أشعر مرات بالحزن، والمرارة، والحيرة الشديدة، والخوف – أحيانًا – الذي ما عرف طريقي يومًا ..

كم كان –ذاك المكان– شرهًا لأحزاني ودموعي، كم ظلمني !!

كان يزورني فيه الخوف بتمكن شديد، إلا أني لم أفلح في التوصل إلى أسبابه ولا مصدره، بَيْدَ أني كنت أشعر بصدق أن هناك من يكرهني بشدة، إلا أنه لم يعلن ولم يظهر أبدًا ذلك لي؛ لهذا كانت حيرتي ودهشتي.

عجزت عن معرفته أو حتى التعرف عليه، إنه شعور مؤلم وقاتل. لا أعرف كيف تولد كراهية بهذا الحجم إلى حد الرغبة المؤكدة في التدمير ؟؟ من أجل هذا شعرت بقوتي..

طوق نجاة

كنا حينها لا نفكر إلا في إزاحة كل القيود وكل السدود التي تحجب عنا ضوء الغد، توقف بنا كل شيء إلا رغبتنا في الوصول إلى إحساسنا بالنجاة من الظلم والضياع، كان الخطر الرابض حولنا في كل مكان هو نفسه طوق النجاة.. حقًا طوق النجاة.

فالمجهول خطر، والفوضى خطر، والحرية خطر، والتغيير خطر. أوهمونا أنَّ في كل شيء خطرًا، حتى في الماء والغذاء خطر، وفي الهواء خطر.. وفي كل جديد خطر.

أصبحنا أسرى لكل خطر وأصابتنا فوبيا الخطر.

في ذلك اليوم تخطينا حاجز الخوف وتجولنا في دهاليز الخطر، كان الخطر معنا رفيقًا حانيًا، كان الخطر معنا رقيقًا شفيقًا ..

أدركنا أن الخطر إن هو إلا بعضٌ من عذابنا في عصر الطغيان وأهون من وطأة الظلم بكثير، تساءلنا : أين هذا الخطر ؟ ماذا يكون من قسوة الماضي ؟

الخطر الذي نواجهه الآن هو النعيم أمام كل ما عانيناه بالأمس بحجة الخوف من الخطر..

كان الخوف هو الخطر.. كان الضعف هو الخطر..

أرهبونا بالخطر وخدعونا باسم الخطر.

ارتكبوا في حقنا كلَّ الخطايا والذنوب باسم الخطر ..

أصبحنا نكفر بالخطر .. أين الخطر من مظلوم يرى بعينيه الموت في كل لحظة ؟

فأصبح لا يهاب الخطر ولا يهاب الموت نفسه .

كنا نهاب كل شيء باسم الخطر حتى صرنا لا نعرف الخطر ولا نعترف به .

اليوم نحن أقوياء تحصنا بترياق الخطر .

لن يمنعنا عن مسيرتنا شيء؛ فقد تخطينا حاجز الخطر، ولن يقف أمامنا حاجز بعد اليوم..

إنا قادمون بلا خوف بلا قيود.

نحن قوم لا نعرف الخطر، بل أصبحنا نحن الخطر على كل ظالم وفاسد وعدو..

الأواني الزجاجية

جلس أمامها يتلمس الأمان في قربها، ويستمد الدفء من بخارها الذي شدت إيقاعاته الراقصة سواد عينيه، ما كل هذا البخار الكثيف؟

إنه يخرج من حلقها متحررًا من جدرانها الشفافة التي تتيح لأي شيء كلَّ شيء إلا التحرر والخروج من حصارها.

تتناغم حركات البخار العشوائية مع رغبته في تحريك أصابعه فوق الفوهة لإكسابها بعض الدفء.

كلما صعدت أصابعه فوقها شعر باختناق لها وللبخار..

فقرر أن يكتفي بتجولها حوله وأن تطوف حول جدران كوبه، وبينما هو يمارس طقوسه الممتعة تلك، ظهرت بين أصابعه صورة أليفة إلى وجدانه، تحمل وجهًا ليس غريبًا عليه، لم تتح له المفاجأة أن يتعرف عليها.

لقد طافت في خيوط البخار وسريعًا صعدت إلى أعلى وفي لحظة تعرفه عليها كانت قد اختفت في السراب الذي صنعه الكوب.

وانتظر أن يتسرب شبحها في البخار مرة أخرى، وفي ترقب

وحذر شحذ كل طاقاته لعودة الصورة، وإذا بشيء قوي شجي يخطف سمعه.

إنها نغمات فيروزية تشدو:

"الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان.. وجهان يبكيان.. وإنني أصلي"...

وتصاحبها لقطات البشاعة، هذا الصيد الذي أصبح وليمة لهمجيةِ شرذمةِ وحوشٍ في ثياب بشرية.

يراهنون على بتر ساقِ حيٍ يلتقط أنفاسه بصراخه ولا مناص أمامه إلا تأجيل آلامه؛ ليتنفس بالصراخ ولتَسِيل دموعُه في نزف دمائه، وليقاوم هذا الجنون برفع رجله في وجوههم.

فيكون ردهم إطلاق الرصاص في القصبة حتى تسقط قدمه ويسقط هو في بحيرة من الدم.

وينصرفون بحثًا عن مغامرة جديدة يشبعون بها نهمهم الشيطاني، وتجاوزهم لكل الخطوط الحمراء وتعديهم على الحقوق..

وهذا الر جل الذي غادرته روح ابنه، أفقدته توازنه فتاهت صرخته.. أتخرج من فمه؟ أم من عينيه؟ أم من أنفه؟ أم من لطمة كفيه على خديه؟ أم من شرود قدميه وتمردهما إزاء قيود المكان؟

أم من عموده الفقري الذي أصابه الخمول فلم ينتصب طوله؟ لقد أبت كل تلك المخارج أن تتحمل تلك الصرخة.

استوعبتها تلك اللقطة التي لا تتجاوز ثوانيَ لتتولاها كلُّ العيون وكل القلوب وكل المشاعر وليتولاها هذا الحجر، فيثأر له ولغيره.

انتبه إلى دفء غير عادي – بحث عنه كثيرًا – من تأثير الجمرات الساقطة من عينيه وكتلة لهب محبوسة بين ضلوعه تُوزِّع في عروقه غليانًا وتُخرج من أعماقه فورانًا .

دماؤه تمضي باختناق ومن آهته خرج البخار الذي نضب منه كوبه.

اكتشف أنه ما زال جالسًا مع كوب الشاي لكنه فسد حينها لعن رغبته في الدفء الذي فسد أيضًا.

اسمح لي ببداية...

كلما توسلت إليك باسم الحق والحقيقة، أن تقول لي إنها الشمس التي أحرقتني وأتلفت مني الكثير وصهرتني، وجعلتني أسيل، ما يكون منك سوى نفيك التام وأن ما يعتريني أوهام.

كان رجائي فقط هو أن تقول: "نعم إنها الشمس."

فأنت من بين كل العالمين أصدقك، وفي هذا الأمر بالذات.

لماذا بخلت علي بها ؟ لماذا كان إنكارك ؟

لم ينتابني الشك يومًا، وعندما أعرضت عن التصريح داهمني..

إن حرارتها تؤلمني، وضياءها يطفئني، وأشعتها المسلطة على قلبي تجعله يدق بهمسها :

نعم.. نعم أنا الشمس" وتفر مني عيني إليك"، أصحيح؟ أحق هي الشمس ؟.

وأنت بلا اهتمام وبكل استهزاء: "هي ليست شمسًا."

وفي ضعفي سلبت مني الإرادة، فلم أقدر حتى أن أحتمي منها في ظلك.

وظللت تحتها أتلظى سعيرها، ورغم إقراري من أعماقي أنها

الشمس، ألم ينحل قوامي ؟

ألم يشحب لوني ؟ ألم أتصبب منها ماءً ؟ ألم ترهقني أنفاسي ؟ ألم يحترق قلبي؟

تراجعت تأثرًا بكلامك.

عدت لأدقق فيها النظر بعيني .

ومن لحظتها ضاع مني البصر.

ولم أرَ شيئًا بعدها.

وتزورني لقطات مما فات .

ويهتف بداخلي شيطان:

"ألم أقل لك صدقيه؟ فهي ليست شمسًا؟ وما حدث هو انتقام لعدم تصديقك إياه، وشكك فيما رواه"

وبعد طول معاناة في عتمة الظلام .

ما زلت أقطن تحت الشمس بلهيبها .

وفجأة الآن .

جاءني من ربي برهان .

أجل هو أنت الذي في الصورة .

التي جالت الآن في ذهني ..

إنه أنت! يا لك من كذاب .

ألست أنت القابع أمامي تحت الشمسية؟

يا لها من حماقة كدت بها أن أهلك!

سهام تصيب

لم تفلت من سهامها المقيتة أيُ فتاة بالعائلة، فهي لكل سعادة أو فرحة بالمرصاد .

كانت لمعة عين "نادرين" تصعقها صعقًا، لمجرد أنها فقط تلمع حبًا وزهوًا وفخرًا بابنتها الكبرى، التي تحصد كل يوم نجاحًا جديدًا وتألقًا يمتد لأعين كل أفراد أسرتها، من أب وأم وإخوة أصغر منها..

باتت مصدر حديثهم وفخرهم وتباهيهم بها ليل نهار..

حقدت "سهام" وحسدت كثيرًا مَنْ هم أقل من "نادرين" – تلك الحسناء في كل شيء– وكانت تتشفى بهم عند أي مكروه يصيبهم..

تساءلتْ لماذا أعجز عن إيذاء "نادرين" وابنتها الحسناء ؟

لماذا لم يصبها أيٌ من سهامي حتى الآن ؟

فجأة نفذ إلى أفكارها "محبوبة" ساحرة القرية، ذهبت إليها توًا خُفية حتى لا يدركها أحد فهي جارة أمها العجوز.

لم تلتفت إلى بيت أمها بل دلفت لجارتها "محبوبة"، جلست أمامها في صمت، أخذتا تتبادلان النظرات والتعليمات. فطنت

"محبوبة" الشريرة لما تريده ابنة جارتها. عندما وضعت أمامها صورة بنت "نادرين" وأشارت إلى عقدها الذهبي المتدلي من عنقها قائلة :

هو لك إن فعلت المطلوب. ردت محبوبة : معلوم.

انصرفت من أمامها، بخطواتها ثقة وارتياح غير عادي. فهي من الآن ستتلذذ بما سيحدث لنادرين وابنتها الحسناء.

كلما مر يوم زادت شهيتها لما بعده فمنذ تلك الليلة وهي تحصد ما تمنت .

كانت "بسمة" الحسناء تخفو رويدًا رويدًا.

كانت "نادرين" تشرد دومًا بعدما مات ابن شقيقتها غرقًا في الغردقة. كان في عامه الجامعي الأخير، وكان يميل إلى ابنتها "حسناء" وكانت تبادله المشاعر.

كم تمنت "نادرين" أن يكون لابنتها زوجًا، فلن تجد لها أفضل منه خلقًا وخلقة حسنة.

لكن كل تلك الأمنيات ضاعت. تبدل حال الجميع بعد ما حدث.

كانت الفاجعة أكبر من احتمالهم وتخيلهم. لم تفوت الجارة تلك الفرصة فما إن وصل الخبر حتى زفته إليهم بنفسها المريضة

المكتظة بالشماتة والتشفي. ذهبت معهم إلى بيت شقيقة "نادرين" دونما صفة ولم تذرف دمعة واحدة.

كان الهدف من ذهابها واضحًا ومقنعًا لها وحدها وسط استنكار من أخوات "نادرين" وأبنائهم، من أتى بتلك الغبراء إلينا هنا ؟ – تجاهلت بدورها كلَّ شيء في سبيل استمتاعها بما آل إليه حالُ "نادرين" وابنتها الحسناء وما إن تأكدت حتى هرولت لمحبوبتها "محبوبة" وخلعت عن صدرها العقد النادر ومنحته إيَّاها بعدما تحقق مرادها..

كانت "نادرين" وابنتها تموتان كل يوم وكل لحظة منذ فراق غاليهما، شحب لونهما وكان الشرود حليفهما..

كانت الصدمة كبيرة للجميع خاصة على الحسناء التي أعلنت رفضها لفكرة الزواج وتعمقت بداخلها الرغبة الملحة في التركيز على عملها الذي أخذ كلَّ وقتها واهتمامها وتميزت فيه كثيرًا ومع ذلك ظلت شاحبة واجمة، ماتت فيها الفرحة، وفارق قلبها الأمل، كانت تعيش بلا روح، لا تعلم لماذا لم تمت مثل من مات، ماتت بداخلها الحياة ومظاهرها، كل الأيام تشبه بعضها، ضحكتها بلا طعم بلا بهجة كانت تموت ملايين المرات، كم تمنت لو ماتت، فتلك الدنيا فقدت أريجها ورونقها، خاصة بعدما تحالف ضدها

منافسوها في عملها الذي أخذته بديلا لها عمَّا فقدته، ظنت أنَّ في عملها السلوى والمتنفس، ولكن لم يكن سوى مكايد تليها مصائب وتربص ممن حولها..

تنبهت لما يحاك لها، أخذت تواجه كل ذلك وتصارع كل تلك المصائب بشجاعة وصبر، تنتصر في كل معاركها التي كانت تصارع بها طواحين الهواء، فهناك من يعرقل لها كل خطواتها ولكنها لا تعلمه .. كانت السعادة صفحة طوتها مجبرة؛ لترتشف مرارة المجهول. تكالبت عليها الظروف وتكتلت الأزمات وتشابكت من حولها المصاعب في عُقَدٍ بعيدةٍ عن متناولها.. لم تشفق عليها الجارة الحاسدة ولم ترفق بها بل كانت تسعد بما آل إليه مصيرُ "نادرين" وابنتها، كانت تظن أن كلَّ ذلك بفعل ما قامت محبوبة الساحرة..

ذات مساء تسلمت "نادرين" دعوة فرح لابنة الجارة، لَبَّتْ وابنتها تلك الدعوة، وسط أجواء الفرح والبهجة تقدمت الحسناء لتبارك لأم العروس، بخلت "سهام" –الجارة– في أن تبادرها وتقول لها " عقبى لك" فقد تمنت الحسناء لو سمعتها منها ولكنها لم تفعل..

ظلت في حيرة من أمرها، تعجبت من ذلك الموقف الغريب !

لماذا ضنت عليها بتلك الكلمة التي تعمدت أن تكررها لكل الحضور؟.

مرت الأيام على تلك الليلة.

اليوم تذكرتها عندما طلقت ابنة الجارة من ابن خالها، حمدت الله أنها لم تقلها لها، فربما كتبت لها الأقدار مصيرًا آخر، ليس شبيهًا بمصير ابنتها المطلقة.

هكذا واست الحسناء نفسها في هذا التوقيت، فما يكتبه الله لنا كله خير عمَّا نطلبه ونتمناه بعلمنا الضئيل.

سر العشبة

اصطحب قطته متجهًا لأرض الفيروز، كان الطريق طويلًا، أخذته مشاهد الطبيعة البديعة، ما بين جبالٍ وتلال بألوانها المبدعة وسحرها الخلاب، لم تكن المرة الأولى التي زار فيها تلك الطرق الوعرة الثرية، فكل ذرة تراب وكل حبة رمل بها قصة فريدة، ومعجزة في الجمال والإبداع الطبيعي. كانت عيناه كأنما تحتضنان كلَّ شبر تقعان عليه ذهابًا وإيابًا، ولِمَ لا ؟ وهي الأرض الطيبة بل والجميلة التي لا مثيل لها في العالم.

تعرجات الألوان وانسجامها مع لوحة السماء المتناغمة مع سكينة الأجواء، وقدسية الأرض المباركة من السماء.

من يصدق أن تلك اللوحة الرائعة كانت ولا تزال مسرحًا لحروب ما زالت رحاها دائرة ؟ من يصدق أن تلك الرمال الساحرة شربت دماء طاهرة، وأخرى خبيثة على مر العصور؟

كم سالت الدماء عليها ومن أجلها وما زالت.

شرد بعيدًا يتأمل كمَّ التناقضات بين هدوء الطبيعة وعنف الصراعات المتجددة في أحضانها.

تلك الرمال التي شهدت بطش فرعون ومن معه، هي هي التي

ترعرع عليها عيسى وأمه مريم.

تلك الأرض التي أنبتت الشجرة المباركة، هي أيضًا التي أنبتت تلك العشبة المميتة.

وصل استراحته التي نجح في شرائها مؤخرًا، سبقته في الدخول قطته الشقية "فيروز" التي أصبحت لديه أغلى من أهله، وضع لها بعض الطعام، أخذ يرتب متعلقاته الخاصة في حجرته المكتظة بكل خصوصياته. توقف عند تلك العشبة القاتلة يتأملها، فهي ذات رائحة ليست نفاذة ولكن جمالها كان لافتًا جعله يقتنيها دون تردد، تذكر يوم وقف عصفور بجوارها وكيف وقع فجأة.. تكرر الأمر مرارًا مما جعله يتوقف أمامها في حيرة.. إلى هذا الحد هي قاتلة!!

لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى وصل للغز الغامض، عندما حدثه أحد عمال المشتل المجاور، أنها عشبة قد جلبها أحد اليهود معه قادمًا من تل أبيب، وقد أخذها منه العامل ليزين بها المشتل .. يبدو أنه – العامل – لم يدرك سرها الذي اكتشفه مؤخرًا.

حيث أخذ يلحظ أن تلك العشبة كلما اقترب منها أي طائر سرعان ما يموت بجوارها، خاصة إذا حاول نبش أوراقها الجذابة . اكتشف قوة سمها عندما وضعها أمام فأر شقي كانت تطارده قطته

الجميلة، ما لبث أن وقع ميتًا في الحال . أخذته الريبة من قوة أثرها، فأبعد قطته فيروز عنها تمامًا خوفًا عليها، أما السر الخفي الذي تأكد له جلبها للحظ بشكل مدهش. هذا ما جعله يقتنيها بشيء من الحذر فمنافعها أكثر. فمنذ اقتناها والخير يسعى إليه بكل الصور.

بدران

بدران شخص رومانسي لمن يعرفه، قاسي الملامح لمن لا يعرفه، فشتان ما بين مظهره وجوهره..

كان الناس يبتعدون عنه بلا سبب واضح له، إلى أن صارحه أحد أقاربه "أيمن" قائلا له : كنت فاكر إنك مغرور ومتكبر لذلك لم أفكر في الاقتراب منك قبلا، الجميع يعرف عنك أنك مغرور جدًا، لا تحب الاختلاط بأي من شباب العائلة خاصة أنك لا تحضر أي مناسبات اجتماعية أو عائلية تخص العائلة أو الجيران.

اندهش بدران من ذلك الكلام وتعجب لسماعه إياه، ولم ينسه مطلقًا فأيمن شخص أمين لا يمكن أن يقول كلامًا مرسلا، خاصة أنه سمع نفس الكلام من أحد المعارف، حينها لم يدقق في الكلام واعتبره هراء.

إذن هناك شيء ما جعلهم يأخذون عنه تلك الفكرة الخاطئة والمختلفة تماما عنه؛ لأنه إنسان بسيط جدًا.

خجول لدرجة أنه انطوائي، كان انشغاله عن حضور المناسبات الاجتماعية بالعائلة لانشغاله بدراسته التي كانت حجة وليست

السبب الحقيقي . السر كان انطوائيته وارتباكه في مثل هذه المناسبات وشعوره أن الجميع يركز معه هو فقط؛ لذا كان يهرب من الوجود في تلك الأجواء المكتظة بالأقارب والجيران . ذات مرة قال لي سرًا عجيبًا : وصل الأمر أنَّ قليلًا جدًا من الأقارب يعرفوني لدرجة أن أحد الجيران سأل أخي الصغير عني قائلا : أين أخوك الأكبر هل حقًا مات ؟

كنت أختفي كثيرًا بالمنزل منشغلا بالدراسة والمذاكرة، كان خروجي قليلًا جدًا بشكل متعمد فأنا هادئ جدًا .

قلت : عنده حق فقد أخذت تلك الفكرة عنك أنا أيضًا لعدم احتكاكي بك، لكنها اختلفت عندما تحاورت معك مرارًا في مناسبات متفرقة، وجدتك عكس ما ذهبت إليه.

-حصاد غريب-

جاءني بدران ذات مساء وقال لي:

لقد شاهدت فيديو خاصًا بالفرح الذي حضرناه مؤخرًا، لم أصدق نفسي؛ لقد شاهدت شخصًا متكبرًا مغرورًا لا يبتسم أبدًا، إذا ابتسم تبدو ابتسامته مصطنعة، -كان لديهم حق -ذلك الشخص هو أنا!

لولا أني أعرف نفسي جيدًا، لأخذت نفس انطباعهم ووقفت

نفس موقفهم مني من النفور والابتعاد، منذ ذلك الحين قررت تغيير تلك الفكرة بشتى السبل.

أخذ بالفعل يجامل ويشارك أهله ولا يفوت مناسبة للأهل أو الجيران.

كانت زيارته الأخيرة لبلدته لحضور إحدى تلك المناسبات وهي فرح ابن خالته المقرب لقلبه.

لم يمض على عودته لطابا سوى ساعات، حتى وصلته أخبار إصابات متعددة لأفراد عائلته، تم حجزهم بالمستشفى وكان العريس أحد المصابين، أخذ الموت يحصد عائلته واحدًا تلو الأخر، الذهول يتسرب إلى أعماقه قبل الحزن عليهم، خاصة أن السبب لم يكن معروفًا بالنسبة للأطباء الذين أشرفوا على حالة المرضى، تم الاستسهال بأنه فيروس غامض انتشر جوًا وربما كان من الماء الذي كانوا يشربونه يوم العرس المشئوم، عاد مهرولًا إلى مسقط رأسه بمدينة بنها ليتلقى العزاء في أسرته، كانت الصدمة أكبر من احتماله.

قاتل بريء

لم ينتابه حزن كهذا من قبل، أصبح وحيدًا فجأة، أخذ ينظر إلى البيت الذي قضى به عشرات السنوات من عمره محبوسًا خلف جدرانه، يتعجب كيف نجحت تلك الجدران في إخفائه تلك السنوات.

كان شاردًا في صوان العزاء – الذي نصب أمام بيت العائلة – حتى أتاه أحد أفراد الشرطة، ظنَّ أنه أحد من الجيران أتى ليجامل ويقدم واجب العزاء..

دخل قاصدًا بدران، وإذا به يطلب منه الذهاب معه لقسم الشرطة، بعدما تبين أن هناك سببًا جنائيًا وراء موت أقاربه، وأنه هو المستفيد الوحيد من تلك الكارثة، فهو الوريث الوحيد لأموالٍ وممتلكاتٍ وعقاراتٍ لا حصر لها؛ لأنه الناجي الوحيد..

كان مذهولًا لا يكاد يفيق من صدمة حتى تأتيه أخرى بلا هوادة.

خرج بعدما قيدت القضية ضد مجهول وبسبب مجهول؛ نظرًا لعدم كفاية الأدلة، وعدم القدرة على الاستدلال على نوع الميكروب الذي تسبب في الوفاة الجماعية..

بعد انتهاء الأحداث أخذ يفكر فيما حدث، وعجز عن تفسيره. لم تكن فرحته بخروجه من السجن أكبر من حزنه على من فقدهم ووراهم الثرى من أعمامه وأولادهم وأخواله وأولادهم بلا سبب..

دخل في حالة حزن واكتئاب وشرود، ظل على أثرها حبيسًا في بيت العائلة..

ثم قرر الابتعاد والسفر لطابا مرة أخرى، فلا سبب يربطه بالمكان سوى أحزان متجددة .

عاد إلى عمله غواصًا محترفًا، يقصده السائحون بالاسم ليصطحبهم في رحلات غطس بجزر السحر والجمال بالبحر الأحمر وشرم الشيخ والغردقة وغيرها من الأماكن ..

ذات مساء عاد من التسوق وسبقته فيروز "قطته" التي أصبحت كل ما له في عالمه.

انشغل عنها في فرز ما قام بشرائه، لم ينتبه أنه ترك درج ملابسه الذي خبأ به تلك العشبة العجيبة مفتوحًا سهوًا.

ما لبث أن وجد قطته نائمة بجوار مقعده المفضل، ظن أنها

مجهدة وتريد أخذ قسطٍ من الراحة.

اقترب منها مداعبًا إياها إلا أنها لم تتحرك، هاله الموقف وأخذ يحركها بعنف ولا سبيل للاستجابة له.

أخذ يصرخ ويبكي، لم يكن يتصور أنها ستضيع هي الأخرى.

الصمت المباح

هكذا أخذ منه الحزن مأخذه، ربط ما حدث قبلًا وما حدث للقطة، تذكر أنه كان قد أخذ معه في إحدى زياراته للعائلة بعضًا من تلك الأعشاب. يبدو أن أمه ظنت أنها أعشاب طبيعية قد جلبها ووضعتها في الطعام مثل باقي التوابل التي اعتاد إحضارها لهم، كان حريصًا على الدخول عليهم ببعض من زيت الزيتون والتوابل الطبيعية والأعشاب النقية المفيدة.

أخذت منه الحيرة كلَّ مأخذ، هل يخبر أحدًا بما حدث؟ أم يتكتم الأمر على ما حدث ؟عليه أن يتخلص من تلك العشبة للأبد؛ فلم يجنِ منها سوى الدمار والأحزان.

سكتة عاطفية

ما أدراكم ما مريض القلب ؟! هو هادئ لعدم قدرته على الحركة، يبدو أنه مستقر إلى مالا حدود، ولأنه غير قادر على الانفعال أغلب وقته، فهو باردٌ في ردِّ فعله إلى حدٍ ما.

حركته قليلة.. ليس عن كسل لكنه ضعف وَوَهْن، لا يستطيع الحركة دومًا، بنفسه ضعفٌ لا يمنحه القدرة على التنقل هنا وهناك، وربما أصابه ضيقُ تنفسٍ وهو يتحدث، لذا ربما اختصر أيَّ نقاشٍ حادٍ بالسكوت، هذا لا يعني أنه غير قادر على المواجهة. يضطر – لعدم قدرته على الجدال – على الاستسلام؛ ليس إقرارًا بصحة من أمامه في وجهة نظره وإنما لعجزه عن الاستمرار في نقاش، من الممكن أن يدفع حياته ثمنًا له فيضطر للصمت، بينما يفسر البعض أنه بصمته يعترف بخطئه..

لم يسلم بمرضه من الظلم والمهانة، لم أكن أتخيل كم المعاناة التي يعانيها مرضى القلب، وعندما أصابني تلف وتصلب بأحد شرايين قلبي اكتشفت ذلك صدفة–

تأكدت أنني لست كما كانوا يصفونني، وأدركت أن أسباب ما كنت عليه ليس لأنني جبانٌ أو كسولٌ أو ضعيفٌ أو سلبيّ؛ وإنما كلها تبعات ما ألمَّ بي من أعراض.. لم أدقق في لحظة أنها

قد تكون مرضًا..

ما وجدت أحدًا يلتمس لي عذرًا وكأنهم لم يعرفوا مرضًا قط.

كانوا يجلدونني في كل ثانية بسياط كلامهم ولا أقوى على الدفاع عن نفسي فهذا يتطلب مني مجهودًا لا يُمكنني قلبي ولا يطاوعني فيه ولا عليه .

اليوم بعدما أدركت ما أنا فيه وأدركوا حالتي، ترى هل تغيرت آراؤهم ؟ هل أحد منهم حاول أن يصحح خطأه نحوي؟ بالطبع لا، حتى أقرب الناس إليَّ لم يحاولوا أبدًا التخفيف عني. مضوا كما هم بلا هوادة وبلا أدنى تقدير أو التماس أعذار.

صرخت في وجوههم: إنني مريض، لا تعبثوا بقلبي أكثر من ذلك، لكنهم تمادوا كما هم، لم يحرك كلامي فيهم ساكنًا.

أخذوا يطالبونني بالكثير والكثير بلا هوادة، كأنهم يريدون قتلي بجلطة أو ذبحة أو أزمة أو سكتة قلبية . بالفعل أصابوني بسكتة عاطفية أصبحت على أثرها غير قادر على حبهم، بل على الحب بشكل تام.

حبي لهم وللجميع توقف، ما عدت قادرًا على الحب ولا الكره، فمشاعري أصابها السكوت.

هي أبشعُ من كلِّ السكتات التي يتمنونها لي، أو التي من

الممكن أن تصيب أيَّ شخصٍ خاصة إذا كان مريضَ قلبٍ مثلي.

الدهشة والذهول يملآنني ومن أعماقي، يفر الحنين للحظة ود أو حب أو شوق ولا أجد.

أماتتني السكتة العاطفية، وأصبحت فقط مجردَّ شبحٍ أو شبهَ إنسانٍ يتحرك هنا وهناك. توقف قلبي عن الحب، فلم يعد يدق حبًا، وتوقف نبضي عن ذبذبات الشوق وهمساته، لم يعد ينبض شوقًا، لم تعد شراييني تسقيني شهد الحياة، توقفت صماماتُ قلبي عن تمرير سائل العمر لباقي جسدي، أيامي تتساقط أمامي عطشًا..

غبت عن الوعي يومًا، كنت وحيدًا في مكتبي الذي تكدست رفوفه حولي تتربص بي هي الأخرى، لم أدرِ كم من الوقت غبت فيه عن وعيي، عندما أفقت لم أجد حولي أحدًا قط.

ماذا حدث ؟ لا أعرف سوى أني ما زلت حيًا، نجوت من الموت تلك المرة فحمدت الله .

بعد دقائق حضر رئيسي بالعمل متربصًا كأنه يريد أن يضبطني متلبسًا بجريمة ما..

أخذ يتفحص ملامحي التي أصبحت لا تنم على شيء فعَدَّ ذلك لا مبالاة مني، طالبني بمهام كان قد طلبها أمس، قائلا:

أنجزتها أم لا ؟

تذكرت أنها تحقيقات هامة كان يجب عليَّ الانتهاء منها اليوم لأعرضها عليه، الهيئة كلها تنتظر ما سوف تسفر عنه نتائج التحقيق في وقائع سرقة أكثر من مليون جنيه، ويشاع أنه سوف يتم التستر على ما يحدث؛ حتى لا تنهار صورة الهيئة ومكانتها.

الجميع ينتظر لحظة الإعلان عن نتائج ما تم التوصل إليه من تحقيقات تدين من تدين وتبرئ من تبرئ..

كنت قد بدأت مهامي في فحص ما لديَّ من مستندات، ولكن لظروف خارجة عن إرادتي لم أتمكن من استكمال فحص باقي الأوراق؛ لذا لم أذهب بالتقرير في الموعد المقرر، وهذا ما أتى بمديري إلى مكتبي بتلك النظرات القاتلة التي لا أحتملها.

لم يمهلني فرصة للدفاع عن نفسي وبادر مقتربًا مني

إلا أنه لم يلتفت نحوي ومضى ناظرًا للنافذة المجاورة

قائلا:

"تم وقف التحقيق وإنهاء الأمر بقرار من جهة سيادية فلا داعي لتلك الحالة التي تبدو عليها" .

تنفست حينها الصعداء، فلم أكن حتى تصفحت أي ورقة في ذلك التحقيق المريب وربما التافه كغيره، الذي تتصارع أطرافه

على بضعة جنيهات هنا أو هناك.

قلت في سري الحمد لله على كل شيء. مد يديه نحو الملف الذي يحمل الأرقام من "١٢:٩" أعتقد أنها نفس عدد الساعات التي فقدت فيها وعيي بمكتبي المتواضع ..

يا لها من مصادفة ومفارقة قدرية لا تتكرر، تلك الساعات الثلاث كانت كفيلة بالقضاء على ما تبقى لي من سنوات في ذلك المكان، وكأن القدر كتب لي عمرًا جديدًا في تلك الوظيفة، التي أحبها ولكن لا أحب تفاصيلها.

ضيف ثقيل

جلست في مكانها المفضل، أمام شرفة تطل على أشهر ميادين مدينتها الراقية، تنظر للاشيء بعدما بات النسيان –عدوها الجديد – عدوها الدائم، صار متربصًا بكل حيز في دهاليز أفكارها، لا تكاد تعثر على طيف إلا التهمه عدوها اللدود الذي عجزت عن صده ورده كعادتها دومًا تجاه كل ما يهددها.

تذكرت كيف كانت تتمنى لو زارها النسيان يومًا في عهدها السالف، حينما كانت تعاني ويلات الغدر والجحود، بعدما تحالفت مع لحظاتها لتعيش جحيمًا عاجلًا..

هاجمتها الجراح بلا هوادة، وغدت الآلام لا تبارحها ولو لثانية، إن حدث وزارها فرحٌ أو طيفُ ارتياح يكاد كيانها يتلاشى من ذلك الشعور الذي لم تعتد عليه، فهي لم تُخلقْ إلا للتعاسة والحزن، هي كيان مأساوي يعيش على الألم ويتغذى على الجراح، تكاد تموت إن باغتتها السعادة أو طاف بحياتها السرور.

بحثت عن النسيان حتى تتسنى لها الحياة كباقي البشر، ينسون ويسعدون ثم يتألمون ثم يفرحون ثم ينسون ثم يتعذبون ثم يتجرعون الألم والمرارة، بعدها يأتيهم النسيان فينسون، وهكذا هي الحياة.

هي لا ترغب في حياة استثنائية أبدًا، بل تريدها عادية جدًا بها تضاريس الحياة الإنسانية، من منحنيات الإحباط ومنعطفات الأمل وهضاب الإخفاق وجزر الألم والحب والعذاب والنجاح والفشل والشجن، وبحيرات الشهد والسهد ومرتفعات الصعاب وضباب الحيرة.

فجأة دخل عالمها الضيف الذي تمنته كثيرًا " النسيان" إلا أن ما حيرها أنه استقرَّ لديها والتصق بها وظل رفيقا لها وبها.

كانت سعادتها ولكن طال مكوثه في محطتها. حاولت الفرار منه لكنه أخذ يسطو على خططها وأحلامها وأفكارها ومكنون ذاتها. كلما همت لتزيحه رويدًا وجدته يتصدى لها ويدخلها معارك عقيمة ليس بها إلا مبارزات لا طائل منها سوى التعتيم على مقتنياتها.

كم كان ضيفًا تتمنى لو زارها، أصبح اليوم ضيفًا ثقيلا تريد التخلص منه كلما سنحت لها الظروف، وكلما طاوعتها الحيل لتنفض غباره عنها وعن كل ما لديها، فقد أسعفها وأنساها ما تريد. بدأت في عالمها الجديد، فعليه أن ينسحب فورًا قبل أن يطمس لديها كل شيء.

طافت بذاكرتها في رحلتها المضنية للتخلص منه عندما

لجأت للدجالين والعرافين، مدوا إليها أياديهم بلهفة فهي صيد ثمين، أخذوا يرمون شباكهم عليها وعلى كل من حولها، استعانت بتعاويذهم وطقوسهم وتعليماتهم، أصبحت لا تخطو خطوة إلا بعلمهم بحجة أنهم يمهدون لها الأجواء لتسعى في طريقها نحو الشفاء.

اكتشفت أنها دخلت في سيطرة هؤلاء، عندما حاولت التخلص منهم سلطوا عليها قرناءهم ليرهقوها، ليعيدوها لعالمهم المزيف من جديد، أدركت أن لا شفاء من كل هذا إلا بالتقرب إلى الله وكتابه البديع. مضت في مسيرتها وإذا بالنسيان يبتعد عنها، وبالأبواب تفتح، وبالسرور يملأ أجواءها، والمسرة ترنم أغرودتها، وتنشر أريجها في كل لحظة وكل خطوة.

لولا ضعفها عندما ابتعدت عن خالقها لما استسلمت وصدقت أكاذيب هؤلاء الأفاقين. كانت فريسة سهلة لهم ولكنها عادت لقناعاتها ومعتقداتها بعيدًا عن أجواء هؤلاء الضالين المُضلِّين.

تمرد

أحببت وذقت طعم الأمان والاستقرار وتاهت من بين أصابعي أحلامي.

أخذني عالمي الجديد في مجاله وتجوَّلت في سراديبه وتفاصيله .

أزهدني ما رأيت بكل ما حلمت به من قبل، بحثت عن أفكاري المبعثرة؛ لأعيد ترتيبها وتجهيزها لأخرج معها لنور جديد وأفق يليق بها، إلا أنها أبت الخضوع لولايتي، تمردت على الاحتواء رافضة الارتواء من معيني، ما عدت كما كنت ماهرة في ترويضها.

ما الذي تغير؟ ما الذي حدث؟ لعلها آثار الحب الجانبية.

باب الجحيم

تذكرتُ كيف كنتُ أسير معانقة الهواء والأجواء، وأريج الحرية يتناثر من كل ركن في الميدان. كانت خطواتي تقفز بي في جنباته، كنت سعيدة لا يشغلني سوى سؤال لا ثاني له كيف سيكون العالم بعد حدوث المعجزة التي فعلناها معًا بالميدان ؟ هل سيجرؤ أحد على ممارسة القبح مرة أخرى ؟ هل للخطأ والخطيئة مكان بعد اليوم ؟

نحن سنعيش فيما هو آتٍ في المدينة الفاضلة.

فكما غيرت الثورة الفرنسية العالم وأوجدت للإنسانية حقوقًا لا وجود لها بأبجديات حياتنا، أتينا نحن بما لم يأت به أحد من قبل، وسوف يبحث الشيطان لنفسه عن عالم آخر أو ربما يعدل عما عزم عليه، فمهمته باتت مستحيلة. فلينسحب من عالمنا فلماذا يعيش بيننا بعد اليوم؟ عليه إذن أن يغير خط سيره والاستسلام لما أمر الله به من طاعة. لم يعد له مكان بعد اليوم، لم يعد للألم أو الحزن أو الهم أو الكذب أو النفاق وظيفة، أو حتى مجال في كوكبنا الذي تحول بتلك الثورة إلى كوكب لا يسع إلا الفضيلة والحق والعدل والخير والحب الإيثار.

الآن أدرك الجميع أن الجحيم فتح أبوابه على مصارعها بلا هوادة.

صدمة

كانت الصدمة الأولى عندما أزيل الستار عن تلك المؤامرة التي أحكموا بها السيطرة على كل ما في المدينة من هواء وأركان؛ ليغزلوا بها أحلامهم المسمومة وتوالت الصدمات، كان اندهاشنا.

كيف أباحوا لأنفسهم الاستيلاء على كلِّ تلك الأجواء الروحانية النقية ؟ ويبثوا بها سمومهم وأكاذيبهم وينجرفوا بنا في أتون حرب شيطانية، كل شبر وكل ذرة هواء بها من صنع إبليس، وقتها ظننت أنه سيتوب ويعلن انسحابه من عالم البشر.

كانت الفطرة هي الوحيدة التي وقفت في وجه تلك التحالفات والمؤامرات، تصدت واستعادت ما تم السطو عليه، لكن ما زال هناك في الأفق ما يعكر الأجواء، ينفخ في نار كامنة تحت الرماد من آن لآن.

لقد أصابني الإرهاق وهم أيضًا مثلي.. الجميع هنا مثلي .

خداع

لم نكن نعلم أن الطريق سيكون طويلًا جدًا هكذا.

لم نكن نعلم أن الطريق صعبٌ هكذا. لم نكن نعلم أن الخداع محكم هكذا، ولولا أننا على الفطرة لما حدثت المعجزة، لما تشبثنا بها حتى اليوم، إنها معجزة النجاة من خطة العدم المحكمة جدًا، المغزولة بأقوى خطط الخبث والخيانة والتضليل.

أطلقوها بثياب الدين والفضيلة المزيفة.

الآن نحن ما زلنا نعاني والطريق طويل به أهوال كثيرة، مآسٍ لا حصر لها، به أشواك وجراح وآهات وأقنعة ما أجودها، ليس ما يؤلمنا شوكه، بل تلك الأقنعة، فكلما نزع منها قناع غرس خنجر مسموم في صدورنا؛ لنكتشف أنَّ مِنْ بين من كانوا رفقاءنا مَنْ قتل وقبض وخان وغدر وانتهز وتشفى ونهش في جسد الوطن بيده بل مخالبه، كل منهم أخطبوط له أكثر من ذراع تنال كلَّ ما حولها فيتحول كل شيء بالتخريب والتشويه والعبث إلى ركام وحطام .

كانوا يعيشون بيننا، ما ظننا أنهم ليسوا منا .

ما زلنا نكتشف من ينتمي لهم كلَّ يوم بفضل الصدفة أحيانًا، وبفضل سقوط القناع حينًا، وبفضل أذرعه التي تمتد رغمًا عنه حينًا.

تلك الليلة

انسدلت دموعه أمامي، عجز تلك المرة عن إخفاء آلامه، لم يحاول إيقافها أو تخفيفها. كان شاغله الأكبر هو إزالة كل دليل بداخلي يثبت لي معاناته وعذابه، فبدلا من أن تمتد يداه لوجهه لمواراة سيول الدمع يوجهها نحوي حتى لا تسقط دموعي .

كان يتحسس تقاطيع وجهي؛ ليمسح أي إحساس فرَّ منه إلى أعماقي ليحميني من لهيب ما يصلني من أوجاعه وأحزانه وآلامه.

كم كان حنونًا حتى في لحظات انهياره !! كم كان إيثاره عنيفًا !!

ظلت دموعه تنسكب من أطراف عينيه تجاه الوسادة النائم فوقها، بلا أدني مقاومة وبلا أدنى محاولة لردعها.

تركته وإذا بالدموع تنهمر في وجهي، لم تفلح محاولاتي لمواراة شلالاتها المتدفقة أمام الأطباء والممرضات، لدرجة أنهم اتجهوا نحوي لمساعدتي؛ ظنًا منهم أنَّ والدي أصابه مكروه أو أني أشعر بتعب مفاجئ، طلبت منهم فقط أن يطمئنوني على حالة أبي.

أجمع لي الجميع أنه بخير، ويُعَدُّ أحسن حالًا ممن هو في

مثل حالته، بشروني بخروجه قريبًا جدًا .

عدت وما إن توجهت لغرفتي هاجمتني حشود القلق، لا أعلم لماذا طاردتني دقات قلبي في ذلك اليوم بهستيرية غير عادية ثار قلبي على ثباتي واستقراري– كما يبدو – بعدما طمأنني الأطباء عليه، لم يكن يومًا مثل باقي الأيام، لم أجد له مثيلًا حتى الآن. كاد قلبي حينها يقفز من خلف ضلوعي تاركًا إياي ليذهب إليه. كنت بدوري ألجمه بكفيّ يدي، كان ليلًا باردًا بقسوة، لا لكونه شتويًا فقط بل كان هناك لغزٌ لا أعلمه .

تلك الليلة الطويلة جدًا كنت أهرع فيها من غرفة لغرفة أبحث عن لا شيء. أخيرًا جلست في ممر ضيق مستسلمة للاختناق والبكاء، شعرت أن روحي تفارقني، عذبتني روحي تلك الليلة السوداء، كلما تمالكت نفسي أتجرع ما يأتي تحت يدي من عقاقير وأدوية عساها تريحني، أرهقني قلبي ومعه روحي الهائجة.

لم يشعر أحد بي ممن حولي، رغم محاولاتي لفت انتباههم بما انتابني لكن بلا جدوى، هذا ما جعل الليلة أطول وأثقل وأسود وأشقى وأقسى من احتمالي.

انهرت وانفجرت بالبكاء لدرجة النحيب، كل حواسي كانت تكذبهم وتكذبني رغم أنهم طمأنوني على والدي .

لم أكن أدرك سر حالتي إلا بعدما رنَّ هاتفي ضُحى هذا اليوم العجيب، ليقولوا لي البقاء لله، لقد تُوفي والدك فجر اليوم..

لم أصدق الخبر.. كان انهياري وانكساري وذهولي : لقد كان بحال أفضل هكذا قلتم لي ماذا حدث إذن ؟.

مات أبي وحيدًا، لم يكن معه أحد منا، الجميع تخلى عنه في تلك الليلة، لكنَّ روحي كانت معه، كل ما مررت به في تلك الليلة ما هو إلا جزء مما حدث له : يا حبيبي يابا حبيبي يابا...

لم يظن أي منا أنه سيفارقنا، خاصة وأن التحسن كان ملموسًا، وكتب له الطبيب أمر خروج بعد إجراءات بسيطة ليكون وسطنا مرة أخرى .

كان الموت أسرع من الأطباء ومن توقعاتنا الخاطئة.

الحقيقة مرة

أخفت آلامها، ظنت أنها تحميه من الوجع .

عندما زاد الألم، عجزت عن كتمان نوباته، حينها عرف وإذا به يلومها ويعنفها، اتهمها بخداعه .

أدركت الحقيقة المرة..

لم يكن يومًا يحبها كما كان يدعي، كان طعمُ الحقيقة أمرَّ من آلامها..

صك عبودية

كلما تجاوز في حقها صفحت، زادت خطاياه، كانت دومًا تقولها : كم أحبك!!

لم يدرك أن الجملة ليست صك عبودية، وما هي إلا إعلان خروجه من قلبها..

عندما اكتمل خروجه الذي استنزفها، وبعدما استعادت شيئًا من قواها قالت له: ربما جاء يوم أفتخر فيه بخروجك من عالمي ودربي ..

مثلما أفتخر الآن بخروجك من قلبي.

لكنها لم تنصرف، ما زالت تنتظر تلك اللحظة ..

سفَّاحٌ أبيضُ الرداء

رغم عجزها عن الحركة، إلا أنها كانت تدرك جيدًا ما يحدث؛ فلقد نجح ذلك الذئب البشري في إخضاعها أمامه على سرير العمليات بعدما أفقدها الوعي، وضعها أمامه شبه عارية، الآن لن يحول بينه وبين خطته شيء، هو طبيب وهي مجرد حالة تستدعي تدخلًا جراحيًا، يرافقه مساعدته.

كانت عاجزة عن ردعه رغم وعيها، كان جسدها هامدًا بفعل المخدر، انحصر أملها في أن يدركها ذلك الشخص الذي تعلق به قلبها لينقذها من تلك الخطة المحكمة بدقة ومهارة، لكن كيف ؟

تصورت وقت وصوله مهرولًا إليها حاملًا معه كل حقائبه وكشفه لما يحدث من جريمة في حقها، لكنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا؛ لأنه لن يستطيع إثبات شيء فالأمر طبيعي جدًا، حتى لو فطن للمؤامرة واستدعى الشرطة، ففور حضورهم يكفي أنهم يرون ذلك السفاح بردائه الأبيض بجوارها، ترافقه تلك الشمطاء بادعاء أنهم يجرون عملية جراحية أو إسعافات خاصة أو أي شيء من هذا القبيل بالطبع سينصرف الجميع ويتركونها وحيدة بين يدي السفاح يفعل بها ما يشاء، أخذ اليأس يتسرب إليها.

بالفعل كانت تشعر بكل ما يحدث لها وحولها.

رافضة تلك الأنفاس التي تحاصرها، تلك النظرات التي تلتهمها، تلك اللمسات التي تنهشها وتعبث بها. أخذ السفاح يقترب منها، أخذت أنفاسه تلاحقها، كانت تشعر بشهيقه وزفيره عابرًا كلَّ مكان في جسدها المنهار بفعل المخدر، كان ينهل من جسدها – الفياض بالأنوثة– كل شيء اشتهاه منها.

كانت هامدة أمامه، أغراه ضعفها فتوغل وتوغل يتلذذ بما حرمته منه وهي بكامل وعيها ..

كلما أنهكه التعب جلس تحت قدميها ليستريح، وما هي إلا نظرة منه إليها تجعله ينتفض من جديد يمارس طقوسه الشيطانية. مرت ساعات وهو على حاله الذي لا يهدأ، بل كانت رغبته تشتعل كلما حاول التقاط الراحة بجوار جسدها الهامد تحت سلطته وسطوته، أدرك منها كل شيء أراده غصبًا وقهرًا..

لفرط جبروته صوَّر كلَّ ما حدث بتفاصيله الحقيرة.. بينما هو كذلك رنَّ جرس الباب ثم تبعته طرقات عالية، هرولت مساعدته المتآمرة نحو الباب، فتحت بكل هدوء، إنه خطيب الحسناء. سألها عنها وطلب أن يراها ليطمئن عليها، أكدت له الشمطاء أن الطبيب معه حالة حرجة ولا يمكن الدخول الآن .

ردَّ الشاب وأين ذهبت خطيبتي ؟ أجابت : لا أعرف عمن

تتحدث ؟ إن كنت تريد الانتظار، انتظر.

جلس منتظرًا حتى ينتهي الطبيب من عمله، كانت حقائبه حوله، ظلَّ حائرًا، فكر سريعًا؛ ربما فشلت في هروبها ولم تتمكن من الحضور حسب اتفاقنا، أخذ يفكر ثم همَّ منصرفًا يبحث عنها .

كان الاتفاق أن تهرب إلى تلك الشقة – التي اكتشف أنها عيادة طبية – تنتظره ليأخذها ويسافرا معًا ليتزوجا بعدما رفض الأهل من الجانبين زواجهما، لأنه لا يعمل عملًا دائمًا ولأنها أكبر منه بعامين.

عرضا الأمر على مديرهما بالعمل فاقترح عليهما فكرة الزواج بعيدًا عن الأهل.

كانت خطيبته تشعر بكل ما يحدث حولها بل ومحيطها، كانت كل خطوة يبتعد فيها خطيبُها عن المكان يتقطع بداخلها خيط من خيوط الحياة ويتمزق نسيج الأمل، ناهيك عن تلك المشاعر التي انتابتها وذلك الذئب يبعثر عمرها، ويعبث بجسدها ويتلف بها حتى بوصلة روحها، ويهدر وديعتها التي ظلت تدخرها لحبيبها، ومن أجله ضحت بكل شيء..

أخيرًا تحرر صوتها من المخدر، صرخت وصرخت ولا أحد

يسمعها، لا أحد يلتفت إليها، ظلت هكذا حتى انتبهت وأفاقت من نومه..اكتشفت أنه كان كابوسًا رهيبًا جثم على أنفاسها ليضيء لها طريقها ويضعها أمام حقيقة ما حولها من مؤامرات وتخاذل مَنْ أحبها وعجزه عن الحفاظ عليها، كان حقًا أصغر من أن يتحمل المسئولية..

أقلعت عن الثقة المفرطة في ذلك المدير الذي يقوم بدور الراعي الرسمي لقصتها مع ذلك الشاب الذي رأته متراخيًا حيالها ..

اكتملت الصورة، اتضح أمامها كل شيء بفضل ذلك الكابوس الذي أفزعها بقدر ما نبهها لتدرس من جديد كل خطوة وكل قرار .

فليس ما رأته أضغاث أحلام بل هو جرس إنذار.

خارج السيطرة

عاشت في برزخ من الزمن الخالي من الخوف والقلق، فأمان الحب استضافها وعاملها كواحدة من كبار الزوار، لدرجة أنها شعرت أن هذا الحيز مكانها.

كل ركن كان على أتم الاستعداد لكل أوامرها، أراحت نفسها من عناء التفكير في القادم من عمرها، كانت كلما فكرت في شيء تراه يتجسد أمامها حقيقة، ما خطر في بالها وما لم يخطر. لعلَّ هذا ما جعلها تمنح لعقلها كل الصلاحيات، أخذ يجيز كل ما أراد؛ ليفعل كل ما تعطل من قبل، حيث سيطر قلبها واستحوذ على قدر كبير من امتيازات العقل، لدرجة أنه كان مسخرًا يطوع تلك الدقات، قبل عثورها على هذا البرزخ وبعد أن تيقنت من حبه لها.

استراحت دفة أفكارها، ومحركات توترها تعطلت، فأجاز عقلها كل الأمور السالفة والمعطلة؛ فقد انتهز فرصة ضياع سلطة

القلب وتسلطه عليه في كل صغيرة وكبيرة. انفرد بنفسه لينجز كل ما تمنى، فتلك فرصته وفي غمرة أمان القلب والعقل في حصن الحبيب، تناست أن الحبيب من لحم ودم. لقد طغى أمانها على مكانة الحبيب .يبدو أنه سهل أن يتسلل إليه سهم من سهام سوء الظن. وقد أصاب فأخذ يفرفر شكًا ويصرخ وساوسَ وينزف اتهامات. وإذا بها ترجع عن طمأنينتها ويستبد بها القلق من جديد. كم كافحت لتستوعب أنها خرجت من البرزخ ولم تسفر محاولاتها في تفسير أي شيء.اكتشفت أنها تستغرق ٢٤ساعة يوميًا في البحث عن الحلقة المفقودة ولم تجدها، فكل ما أفلحت في الحصول عليه مجرد احتمالات وافتراضات وتخمينات.

انشغلت عن كل شيء، فقد أخذتها دوامة الفراغ تلك من كل شيء، توقف عقلها مرة أخرى ليتسلم القلب زمام الأمور، قادها قلبها إلى بوابة الوشايات وأخذت تلملم ما تبعثر منها من أفكار منثورة وظنون سقيمة.

أخذت ترتب وتداوي وتعقم شرايين أفكارها علها تفلح في الإصلاح. توصلت لصيغة ملائمة تعيد لها ما سلب منها وما نزفته من حيرة وشكوك.

هكذا اختصرت ما مرت به سالفًا، ولم تتمكن من حصر ذلك الزمن البرزخي، وكم يكون في أيامها العادية فلم تكن تعبأ بتوقيتات أو مواعيد.

كان شاغلها الأكبر حينذاك إنجاز أكبر قدر من الإنتاج . وتفريغ أكبر شحنة من المخزون الذي يكتظ به دماغها، فهي محملة بأعباء فكرية تثقل حركتها ولكنها عادت مرة أخرى لتكابد أحداث ٢٤ ساعة ما بين قلق على الحبيب وخوف عليه، وربما منه وما بين ظنون وشكوك وما بين وساوس الشيطان التي تهاجمها بانتظام، وما بين عجز تشعر به وكبرياء تمنعها من المبادرة لتصل ما قطع...

وهل إذا نجحت في استرجاع ما فقدته ستعيد الكرة مرة أخرى وتنشغل عن ذلك الحبيب ؟ هل ستأخذها أثقالها التي أرهقت محتوياتها بعيدًا عن عالم البشر ؟ هل تنصرف عن كل شيء لتنأى بنفسها إلى برزخ جديد ليخفف من أثقالها المتراكمة ؟ وإذا بكلمات إيبل تلاحقها لتقول لها:

"كل كائن بشري يمر بلحظة يسلم فيها الممسك بمصيره زمام أموره ليده هو ." يبدو أنه حقًا ما قال هذا الشاعر في أبياته فقد كان قلبها لوقت ليس بالهين يمسك بمصيرها وكانت مستسلمة.

وها هي في غفلة منه قد تسلمت زمام أمورها، فلماذا لا تعد ذلك انتصارًا لذاتها ؟ وعليها ألا تعود إلى الماضي وألا تُساق إليه مرة أخرى

علمت الآن

ما ندمتْ يومًا على شيء فاتها، لم تحزن قط من ضياع الفرص التي تلقى أمامها على طبق الأيام ويتهافت عليها الجميع من حولها.

واجهت نفسها استجابة لنظرات لومهم واتهامهم لها بالظلم.

ذات مساء جمعتني بها مصادفة، دعتني للذهاب معها لمنزلها القريب من مكان وجودنا، بدوري انتهزت الفرصة لأتعرف عليها عن قرب، شعرت أنها تحتاج للتحدث معي، لبيت دعوتها بلا تردد، وما إن وصلنا دلفت معها لحجرتها، كانت متناسقة الألوان مرتبة بدقة، جلست أمامي ونظرت لمرآة أمامها، وجدتها تتساءل :

"هل أنا ظالمة ؟" هكذا صرخت في وجهي.

لم أتمالك نفسي، أربكني السؤال – كان صمتي تأكيدًا لظلمها لكل من حولها..

بكت بغزارة تستنكر التهمة، قالت:

"لم أظلم أحدًا قط، بل إنني أشعر بالظلم، لا أعلم من الذي يتعمد ظلمي، عندي عدو لا أعرفه..

من يكون ؟

كلما تقدم لي أحد أشعر بعدم ارتياح، تنتابني حالة لا أعرف لها تصنيفًا أعجز عن تشخيصها، تزداد دقات قلبي، تتثلج أطرافي، أفقد توازني، يتمكن مني الحزن والهموم، لا أعود لطبيعتي إلا بعد انتهاء الأمر إلى لا شيء، تهاجمني أسئلة لا أجد لها إجابة".

التفتت نحوي في يأس، ناظرة لزاوية الحجرة، استطردت: "هل يمكن أن أكون ظالمة ؟ أشعر أنني ضحية لا أعلم ضحية لمن..

هل هو النصيب الذي تأخر ؟ ولماذا تأخر ؟ هل بسبب من رفضته يومًا ؟ ربما.

هل بسبب غيرة إحداهن ؟ ربما.

هل انتقامًا من أمي لكثرة تباهيها بي ؟ ربما .

هل لي أعداء يهمهم أن أكون وحيدة وألا أكون سعيدة ؟ ربما

.

هل لي عشاق يرفضون رفضي هواهم ؟ ربما .

ربما كان عدوي شيطانًا وربما إنسانًا.

إنما هي أشياء بعيدة عن المنطق والعقل .. هل يكون الأذى لمجرد الأذى؟

في كل الأحوال أنا راضية رغم الألم.

لكنني أمر بلحظات أضعف فيها، أبكي فيها كما أبكي الآن، أجهد نفسي كثيرًا لأعرف السبب، أي سبب لكن لا أعرف ولا أحد يعرف، فالحكمة عند ربي وحده."

تلك الحالة التي رأيتها عليها أول مرة جعلتني أفاتحها في أمر شقيقي الصغير الذي أحبها لدرجة إشفاقي عليه منها ومن جبروتها– كما كنت أظن–

ما إن فاتحتها في الأمر بكت أكثر وأكثر.

تلك الدموع ليست كسابقتها، هي لآلئ تتراقص على وجنتيها، بريق غير عادي يخرج من بين رموشها .. رأيت الفرحة والحزن معًا.

تعجبت من حالتها، ازدادت حيرتي، هل سأخرج من هنا بالفرحة أم بالحزن لأخي ؟ ماذا سأحمل له منهما ؟ سأمضي بأي منهما لأخي الذي ساءت أحواله لتجاهلها مشاعره ؟ تطوحني هواجسي وهي ما زالت على نفس الحالة الفرح الحزين والحزن الفرح .

بين الرغبة في الكلام وذاتها في الصمت، كانت في نزاع بين الرفض والقبول.

أرهقني كل هذا الكم من المتناقضات في كيان أزيح عنه الحجاب وبدا أمامي شفافًا إلى أقصى درجة يبدو عليها بشر.

أخيرًا هدأت لكنها على نفس انقسامها بين كل المتناقضات .

اتجهتْ نحو درج المكتب تبحث عن شيء بهستيرية، أخرجت منه ورقة، دفعتها نحوي، علمت الآن ماذا تقصد.

الفهرس

طوفان.

لست سمكة.

آخر رجل في العالم.

جمال كمال فيهم.

الوليمة.

إرهاب.

يقتلون الحب.

الصمت الثائر.

مركز قوة.

طوق نجاة.

الأواني الزجاجية.

اسمح لي ببداية.

سهام تصيب.

سر العشبة.

بدران.

قاتل بريء.

الصمت المباح.

سكتة عاطفية.

ضيف ثقيل.

تمرد.

باب الجحيم.

صدمة.

خداع.

تلك الليلة.

الحقيقة مرة.

صك عبودية.

سفَّاحٌ أبيضُ الرداء.

خارج السيطرة.

علمت الآن.